بلاغة العنوان في رواية "أشباح الجحيم" لياسمينة خضرا

أ.سومر خديجة

جامعة طاهري محمد بشار

الملخص:

إن الاهتمام بدراسة العنوان أمسى تحولاً علمياً في ظل النشاط الفكري الإنساني الخصب في رحاب الدرس النقدي الحديث بكل أبعاده. فانصرفت بذلك الهمم لدى فئة من الباحثين منذ أن أدركوا أهميته في عالم النص الحكائي إلى مساءلته و محاورته، كونه أول عتبة نلج من خلالها إلى غيابة النص، لأنه رأسه و مفتاحه الأساس، يرتبط بباقي جسمه، يمنحه بذور النمو و التطور.

وعند تقليب النظر في الصّرح النقدي، فإننا نجد العنوان قد أُفردت له بحوث مستقلة، تناولت قضاياه و أُعطيت له العناية على المستويين النظري و التطبيقي، لذا نجد الكاتب ينتقي أحسن العناوين فهو بذلك يُظهر عبقرية في صنعها، حيث إنه يوظف في تشكيلها جملة من المهارات، تتسم ببلاغة مميزة، نظراً لكونه مدخلاً أساساً في قراءة الإبداع الأدبي و التخيلي بصفة عامة، و الروائي بصفة خاصة. في ضوء هذا وسمنا موضوع المقال: (بلاغة العنوان في رواية "أشباح الجحيم" لياسمينة خضرا)، المترجم عن روايته بالفرنسية Les Sirènes de Bagdad ».

الكلمات المفتاحية: العنوان، المكان، السرد، الخطاب،اللغة، الرواية، الذاكرة، القارئ.

Abstract:

The importance of the study of the title has become a scientifically transformation under the humanitarian rich intellectual activity within the confines of the modern cash lesson in all its dimensions. And served in that category since researchers aware of the importance in world history text to the interrogation of dialogue with him, is the first threshold we committed to in the text of depths, because the fundamental bound the head rest the body, giving it the seeds of growth and development.

when examining the temple treasury, we consider the title behaved independent research, and was treated to theoretical and applied levels, therefore, the best writer selected titles thus appeared the genius in their manufacture because they are made in its composition, among other skills, distinct eloquently, is essential to reading the morale and creativity in general and the holder of a particular story. In light of what we have keynote address on the title of the version Yasmina Khadra. "The Sirens of Baghdad"

إن العنوان ليس حلية تزين غلاف الرواية فحسب، بل تسمية مفكَّر فيها كثير للخطاب الذي تقدمه الرواية، و هو ليس نقوشاً من القش تطفو على سطح المتخيل السردي، بل زبدة لأهم التفاعلات الناتجة عن تداخل عناصر النص وتعاضدها، ولا ينتصب على فضاء الغلاف منعزلاً، بل تربطه بالنص وشائج تخرج كخيوط متعددة يكون العنوان جُمَّاعها[(1)].

العنوان يعلو النص ويحيط به، يمنحه النور و يدعو المتلقي لتتبعه، فهو أول ما يَشدُّ البصر، و لعله آخر شيء يرسب في الذاكرة حين ننسى النص، ليظل بذلك من بين العتبات التي تُلفح الذاكرة وتصرُّ على البقاء،لأنه "مثل اسم الكاتب موضع للدوران و بدقة أكبر موضوع للتحادث"[2]. و لعل هذا ما لاحظناه في رواية ياسمينة خضرا (أشباح الجحيم).

فالعنوان داخل هذا النص الروائي من المحافل النصية التي لها القدرة على إنتاج الدلالة من خلال عملية التفاعل وإقامة علاقة جدلية بينهما،فقد سُخِّرت لخدمتها و التعريف بها؛لذا أضحى عنوان مولسهول:" مجموعة من العلامات اللسانية التي تظهر على رأس النص ، قصد تعيينه و تحديد مضمونه الشامل ، وكذا جذب جمهوره المستهدف."[3]

و من هنا يعد من المفاتيح المهمة في اقتحام أغوار نصه وفتح مغاليقه واستكناه أعماقه؛لأنه"البهو الذي منه ندلف إلى دهاليز نتحاور فيها مع المؤلف و المتخيل"[4]. من هذا القول نرجع سبب اهتمامه بالعنوان إلى "ما له وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساس من مقاصده الدلالية"[5]؛ فهو بذلك "يسعى إلى تقشير جيولوجيا المعنى بوعي يحفر في التفاصيل وفي النص الأدبي"[6].

العنوان يساعد المتلقي على فهم شفرات النص الأدبي وتحديد مقاصده الدلالية، لذا له "الدور التواصلي الهام الذي يؤديه في توجيه القراءة، ورسم خطوطها الكبرى، لدرجة يمكن معها اعتبار كل قراءة للرواية بدونه بمثابة دراسة قيصرية اختزالية من شأنها إلحاق ضرر كبير بالنص، وتشويه أبعاده و مراميه"[7]

وحين متابعتنا للدراسات التي صبَّت في هذا المجال يتضح لنا كتاب عتبات « Seuils » لجيرار جنيت(Gérard Genette) الذي تناول العنوان بالدراسة والتحليل. وبذلك بدأ الاهتمام به يندرج: "ضمن سياق نظري وتحليلي عام يعتني بإبراز ما له من وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية، وهو اهتمام أضحى في الوقت الراهن مصدراً لصياغة أسئلة دقيقة تعيد الاعتبار لهذا المحفل النصي المتنوع الأنساق ، وقوفاً عند ما يميزه ويعين طرائق اشتغاله"[8]. وبالتالي هو شديدة الارتباط بالنص الروائي الذي يقف في بوابته لغرض جذب القارئ إليه والتأثير عليه.

و قد رافق العنوان – كونه أول عتبة– العتبات الأخرى منها الغلاف، الإهداء، المقدمات، التعليقات، الملاحظات... وغيرها ، لكونها "عتبات أولية بها ندخل إلى أعماق النص وفضاءاته الرمزية المتشابكة"[9]، تفسح المجال للقارئ كي يقوم بعملية التأويل، و بخاصة العنوان الذي -كأي علم آخر- بدأ عفوياً فِطريا مختلطا بكل هاته الملحقات النصية ، تجاوزه الدارسين في تعاملهم مع النص بوصفه هامشاً لا قيمة له ، و ملفوظا لغوياً لا يقدم شيئاً إلى تحليل النص الأدبي.

لكن ليس العنوان " الذي يتقدم النص ويفتتح مسيرة نموّه مجرد اسم يدل على العمل الأدبي: يحدد هويته ، ويكرّس انتماءه لأب ما، لقد صار أبعد من ذلك بكثير.وأضحت علاقته بالنص بالغة التعقيد؛ إنه مدخل إلى عمارة النص ، وإضاءة بارعة وغامضة لإبهائه وممراته المتشابكة ... و لقد أخذ العنوان يتمرد على إهماله فترات طويلة، وينهض ثانية من رماده الذي حجبه عن فاعليته، وأقصاه إلى ليلمن النسيان، ولم يلتفت إلى وظيفة العنوان إلا مؤخرا"[10] ، و بذلك ثبَّت وُجوده واستقل عن غيره من العتبات، فأصبح علماً قائماً برأسه ألا وهو 'علم العنونة' (La Titrologie). و لذا فإنه البداية الأولى لمراحل التأويل في النص، يؤدي دوراً أساسا في فهم المعاني العميقة للعمل الأدبي ، و من ثَمَّ فهو يرتبط بباقي جسم النص، يمنحه بِدَورهِ النمو والتطور.

وإذ أردنا أن نمسك الخيط من أوَّله في مسألة "علم العنونة" أين لقي العنوان عناية فائقة في معظم الدراسات الأدبية، فأفردت له المؤلفات والبحوث و توسعت دائرة الدرس فيه وتشعَّبت وتناوله البحث النظري المعمق باعتباره: "نصا مختزلاً ومكثفاً و مختصرا"[11]. لم تمض على هاته الدراسة خمس سنوات حتى ظهر عمل "كلود دوتشي«Claude Duchet» سنة 1973م، تحت عنوان:" الفتاة المتروكة والوحش البشري مبادئ عنونة روائية حيث بدا أن المؤلف بشَّر بميلاد فرع دراسي يكون موضوع بحثه عنصر هو من الصلابة بحيث يبدو غير قابل للاستكناه "[12].

كذلك نجد كتاب شارل كريفل(Charles Grivel)الموسوم "إنتاج الاهتمام الروائي" الذي يضم فصلا مخصصا لقوة العنوان"[13]. ويبقى ليوهوك(leoHock) من بين الذين أعطوا اهتماماً لعلم العنونة خاصة بعد ظهور كتابه "سمة العنوان" « La Marque De Titre » سنة 1973م، رصد من خلاله العنونة رصداً سيميائياً بالتركيز على بناها ودلالاتها ووظائفها، و قدم بذلك تعريفا للعنوان فهو: "مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات وجمل، وحتى نصوص، قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجلب جمهوره المستهدف"[14].

من جهة ثانية نجد دراسة "العتبات" لجيرار جنيت التي يمكننا أن نعدها " دراسة علمية ممنهجة في مقاربة العتبات بصفة عامة، والعنوان بصفة خاصة، لأنها تسترشد بعلم السرد والمقاربة النصية في شكل أسئلة ومسائل، وتفرض عنده نوعاً من التحليل"[15].

مثلت هاته الأعمال محطات جوهرية توجيهية على الدرب العلمي، ينهل منها كل باحث لإغناء مادة دراسته وتحليله للعناوين ، بقصد الاطلاع طبعاً على مستواها ودورها وقيمتها داخل العمل الإبداعي الذي تسمه.كذلك لا نريد تتبع التاريخ في دراستنا هذه بمجمل ما كُتب عن العنوان، فإن ما نبتغيه هو اختيارنا له أداة إجرائية في كشف جماليات العنونة في روايات ياسمينة خضرا بوصفه " الثريا التي تحتل بعداً مكانياً مرتفعاً يمتزج لديه بمركزية الإشعاع على النص"[16].

على هذا الأساس أوْلت الدراسات النقدية الحديثة للعنوان اهتماماً خاصا،حيث إن فئة من النقاد بدأت في السنوات الأخيرة تُضمِّن دراساتها النقدية محاورة للعنوان لاستقرائه، كما صدرت عدة دراسات تعنى بفلسفة العنوان وأنماطه ومكوناته ووظائفه وقد تمَّ التأسيس للعنوان عندهم من منطلقين:الأول: فلسفي نظري، تمثل في أن العنوان علامة ذات دلالة، وقد وجد هذا المنطلق تعبيراً عنه في الدراسات السيميائية، أما المنطلق الآخر فهو ذو بعد تطبيقي بالدرجة الأولى، يدرس العنوان من خلال النص الموازي، وينظر إلى العنوان بوصفه عتبة أولية تقوم بوظائف عدة تؤشر أسهمها اتجاه النص الرئيس[17].

و عليه قد حظي العنوان بأهمية كبيرة في المقاربات السيميائية، باعتباره أحد المفاتيح الأولية التي على الباحث أن يحسن قراءتها و تأويلها و التعامل معها في النصوص الأدبية، لكونه:"نظاماً سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالته ومحاولة فك شفرته الرامزة"[18]، بوصفه عتبة مهمة على الدارس أن يطأها قبل إصدار أيّ حكم، لأنه لم يوضع من قبل المؤلف عبثاً أو اعتباطاً؛ "إنه المفتاح الإجرائي الذي يَمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا في فك رموز النص،و تسهيل مأمورية الدخول في أغواره وتشعُّباته الوعرة"[19].

و عناوين ياسمينة خضرا تختزن مكونات النص، وتحرك المتلقي باتجاه توريطه في دخول تلك المكونات مع دلالاتها، بوصفها "بنية صغرى لا تعمل باستقلال تام عن البنية الكبرى التي تحتها،فالعنوان – بهذه الكينونة- بنية افتقار يغتني بما يتصل به من قصة، رواية، قصيدة،ويؤلف معها وحدة سردية على المستوى الدلالي."[(20)]

فالعلاقة بين العنوان والنص الروائي علاقة معقدة، بحكم أن الرواية" نص أدبي متخيل وليست نصاً علمياً تشفع له ضرورة العلم والالتزام بالمنطق،بأن يكون عنوانه مطابقا، بل إن الرواية تؤثث عناوينها بالبلاغة و الإشراقات الشعرية،كما تعمد إلى لعبة المراوغة و الإيهام"[(21)]، و العنوان في هذه الحال عبارة عن علامة لغوية مشفرة تحتاج إلى متلقي حاذق يفك هذه الرموز التي تعلو بنياته،فهو مفتوح على دلالات هلامية متعددة، و لا يمكن قراءته بعيدا عن النص.

و بذلك يرتبط بنصه عبر علاقة جدلية تتمثل في تفاعلهما عبر الانسجام و التعريض الدلالي أو تخييب أفق انتظار القارئ. فهو" مرسلة تتصل لحظة ميلادها بحبل سري يربطها بالنص لحظة الكتابة و القراءة معاً، فتكون للنص بمثابة الرأس للجسد، نظراً لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية و جمالية، كبساطة العبارة و كثافة الدلالة و أخرى إستراتجية، إذا يحتل الصدارة في الفضاء النصي للعمل الأدبي "[22].

لذا يمكن تتبع عمل العنوان في أعمال ياسمينة خضرا على" أنه حاضر في البدء و خلال السرد الذي يدشنه،و يعمل كأداة وصل و تعديل للقراءة"[23]، فهو يؤدي دورا فعالاً في لفت انتباه القارئ و يرغِّبه في فعل القراءة ، و خوض تلك التجربة الجميلة عبر صفحات الرواية.

و كثيرا ما يقف القارئ أمام العنوان مؤثثاً بالدهشة والحيرة، متوجساً من الإغواء والإغراء،ولاسيما العناوين المراوغة التي لا تسلم نفسها بسهولة إلى المتلقي؛ لأنها تخفي دلالاتها بامتناع يمتاز بالغرابة، و يبدو أن تعدد الدلالات أحد المشوشات التي لها فاعلية مؤثرة في ذلك،من هاته العناوين"أشباح الجحيم" للكاتب الجزائري"ياسمينة خضرا.

فهذا العنوان يغري القارئ و يشوقه لمعرفة ما يحدث داخل المتن الحكائي، يحمل بداخله بنية دلالية تمتاز بالإيحاء و الرمز، فغدا بذلك "إشارات سيميائية معقدة" ، يحتاج إلى من يسائله و يغوص في أعماقه و يحفر في دلالته، إذ يستنطق الغياب، الغربة و الموت، صهرها الروائي في بوتقة واحدة، توحي لنا بعذابات الأنا /الآخر الواقعة تحت وطأة زمن الموت و الفتنة، فهي حشد للعذابات و فضاء للتغني بالمواجع و الألم.

يطل عنوان"أشباح الجحيم" في لحظة تألقه على ما لا يرى في أول وهلة على الوجع والضياع، على واقع مرير مليء بالصراع صراعات أبناء الوطن، إنها أمة بكاملها أُدخلت زمن الموت والفتنة عنوة.لهذا أعطاه الكاتب موقعاً استراتيجيا هاماً إذ "له الصدارة ويبرز متميزا بشكله وحجمه، وهو أول لقاء بين القارئ و النص، وكأنه نقطة الافتراق حيث صار هو آخر أعمال الكاتب، وأول أعمال القارئ"[24]، و لعل هذا ما جعله يبذل جهدا كبيرا في اقتناء هذا العنوان و وضعه في الموقع اللائق به الذي أعطاه بُعداً جمالياً معيناً.

ليجعل منه علامة مختزلة مفتقة للدلالات قد تكون مستفزة للبُنى الخفية في النص، لأنه "يقوم على تركيب نصي يعد مفتاحاً منتجاً ذا دلالة، ليس على مستوى البناء الخارجي للعمل فحسب، بل يمتد إلى البُنى العميقة ويستفز فواصله، ويدفع السلطة الثلاثية (المبدع – النص – المتلقي) إلى إعادة إنتاج تتيح لعوامل النص الانفتاح على أكثر من قراءة"[25].

لذا يمثل "أشباح الجحيم" واجهة تمثل المبدع، وعلامة مؤثرة في المتلقي، قد تفوق البنية الكلية، وقديماً قال الجاحظ: "إن لافتتاح الكتاب فتنة وعجبا"[26] ،هذا ما جعل المؤلفين يفتتحون رواياتهم بعناوين جاذبة، نظراً لخصوصيتها الدلالية كما قد تكون في أحيان كثيرة حاملاً إيديولوجياً محفوفاً بسمات العصر.

و القارئ لعنوان "أشباح الجحيم" يجده يؤدي دور المنبه التحريضي، فسلطته الطاغية تضفي بظلالها على النص، ليستحيل هذا الأخير جسداً مستباحاً لسلطته، و من ثَمَّ يضحى نقطة وصل بين المبدع و المستقبِل إنه بداية اللذة، فهذا الوخز الذي يلقي به على مخيلة القارئ يحرك بداخله وجع القراءة الذي ما يفتأ أن يصبح لديه فيما بعد وجع كتابة.

هكذا نحاول ولوج عالم ياسمينة خضرا الروائي من خلال عنوان نصه،الذي يُمكن عدَّه نقطة استقراء لخفاياه، وكيف استطاع أن يعمل على توجيهه، وكسر تمنُّعاته، وكذا اللعب على نبضه،فالمتأمل لرواية "أشباح الجحيم" يتبين له أنها رواية للمحنة تتخذ من الأزمة و المأساة العراقية في زمن الاحتلال الأمريكي فضاء للبوح السردي، تروي حكاية زمن من الصعب أن تكون فيه حراً. و قد تجلى لنا هذا في الملفوظ الآتي حين يقول البطل السارد:

"عثرت بيروت على ليلتها وحجبت بها وجهها، فإذا كانت تظاهرات الأمس لم توقظها، فإن ذلك هو الدليل على أنها تنام ماشية، ففي تقاليد الأسلاف، علينا أن لا تزعج مروبصا، حتى وإن كان يسعى إلى حتفه"[27].

ويقول في موضع آخر:

" و حينها تلألأت سماء بغداد بأسهم نيران غريبة كنت أشيد لها آفاقا رائعة.ارتفعت صفارات الإنذار في صمت الليل؛ طفقت العمارات تتحول إلى دخان، و بين عشية و ضحاها، ذابت الغزليات الأكثرجنوناً وسط الدموع والدماء.احترقت كراريسي و كتاباتي الرومانسيةفي الجحيم،و سلّمت الجامعة للمخربين والأحلام لحفاري القبور؛دخلت إلى كفركرم، متهلسا،حائرا، و لم أضع قدمايفي بغداد ثانية."[28]

إنها الكلمات التي اختارها ياسمينة خضرا من متنه الروائي لتكون عتبة أمام القارئ، لتمسي شفرات تستفزه من أجل الحفر في خبايا النص. سنحاول الكشف عن ارتباط هذا العنوان بالبنية النصية،وكيف عمل موجها لها و مؤطراً للنص من خلال بنيته الخاصة التي انتقاها المبدع وسيقوم عملنا على ربط المكونات الداخلية لعنوان"أشباح الجحيم" و المترجم عن العنوان الأصلي:" les sirènes de Bagdad " بوصفه بنية صغرى مرتبطة ببنية أكبر ألا و هي النص.

و بالتالي نسعى للكشف عن التكامل الحاصل بين هاتين البنيتين عبر العلاقات الداخلية التي تربط أجزاء هذا العمل الفني،حيث" إن العنوان بمفرده يمكن من خلاله تفكيك النص إلى بنياته الصغرى و الكبرى،قصد إعادة تركيبه من جديد نحواً و دلالةً و تداولاً،من الأسفل إلى الأعلى و من الأعلى إلى الأسفل،من الداخل إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل"[29].

إن عنوان "أشباح الجحيم" لحظة وَقْف واعتراض دلالية يحمل في ثناياه عنصر المفاجأة الذي يزيد من فضاء التوقع القرائي؛إنه فرصة لقراءة متأنية إذ يمكن من خلال تركيبته و طبيعته اللغوية الاختزالية فتح باب الأفق التخييلي للنص،و من ثم فهمه و قراءته باعتباره علامة تعترض مخيلة القارئ،ثم تدعوه إلى إعادة إنتاجها من جديد لأنها تنبض بالدلالات التي تنتظره لتشريحها.

و هو علامة لسانية و إن لم تكن مكتملة نحويا، إلا أنها ذات صلة بواقع النص و ذات إحالات دلالية عميقة تتجاوز بنيتها التركيبية، إذ يرتبط "مع نصه عبر علاقة استبدالية، حيث يضيء كل منهما الآخر،مما يعني أنه لم يعد هو المعنى الوحيد الذي يحدده النص،بل إن النص ساهم في خلق مرايا ومعان متعددة"[30].

ينقسم عنوان "أشباح الجحيم" إلى عنوان رئيس و عناوين داخلية، على أساس هذا التقسيم يكون العنوان الخارجي هو" أشباح الجحيم "؛ فهو العنوان الغلافي للرواية و تشكل "كفر كرم"،" بغداد " و" بيروت " عناوين فرعية.ينتمي عنوان " أشباح الجحيم " إلى صيغة العنوان الجملي، يتكون من جملة اسمية تفتقر إلى الخبر؛أي أنه ينبني على آلية الحذف الذي يؤدي إلى الغموض الدلالي، غموضٌ تزداد حدَّته مع وجود المبتدأ المتكوِّن من مضاف ومضاف إليه" أشباحُ الجحيمِ".

يمكننا تأويل هاته البنية التركيبية بوصفها مسندا إليه، ليكون المسند الخبري هو النص السردي، فما يحمله من أحداث ومشاهد يقوم بوظيفة الإخبار عن شؤون"أشباح الجحيم" المسند إليه. و عبر هذه العتبة يعلن الكاتب من البداية أن روايته تنتشي الألم وهموم الذات والأمل على السواء ليكون الخطاب الروائي بذلك معادلاً للذات الساردة بكل ما تحمله من ألم و أمل.

فالروائي ركَّب هذا العنوان وفق نسق معين، ليعطي لنا معنى محدداً من النص، و رغم قِصر الكلمتين اللتين يتكون منهما ، إلا أنه ينتشر على مساحة هائلة وكأنه نص صغير انبثق من آخر أكبر منه ألا و هو النص، يكمِّله ويسبح في فلكه، ليكون علامة لغوية مكثفة، يمكن أن تكون مختزِلة لفكر بعينه.لذلك نرى أن مولسهول أراد من هذا العنوان أن يكون مراوغا وعنيدا،إذ كلما حاولنا الإمساك به انفلت من بين أيدينا،فنعود مرة أخرى لنحاول القبض عليه وتأويله،وهكذا تتعدد دلالاته و تتشظى بحسب كل قراءة.

إن جمالية القول البلاغي تكمن في الإيجاز، وإن إيجاز الحذف قد فَعَّل هذا القول في حالتي الإقناع والإمتاع معاً.و بذلك سعى المؤلف لإغواء القارئ و إغرائه في الوقوف مندهشاً أمام هذا العنوان، فلربما يلخص مجمل ما جاء في الرواية، بخاصة و أننا نجده مأخوذا برسالته التي يريد إيصالها إلى قارئه مما يجعله يرفض التلاشي والموت المجاني والفتنة التي نقشت في ذاكرة الزمن.فأضحى يسقط عليها تجربته المعاصرة بكل همومها، ليتحول العنوان بذلك إلى نص يستمد روحه من عمق الواقع من آلام الوطن، والمقاومة المهزوزة، حين يقول:

"أصبحت الاعتداءات حوادث يومية...ليست مدينة؛ كانت ساحة قتال،ميداناً للتدريب على الرمي، مجزرة ضخمة.غادرت مدينة أنيقة، و عند عودتي، عثرت على أفعى متجعدة، تتشبث ضد شقوقها. أسابيع قليلة قبل قنبلة الحلفاء للمدينة، آمن الناس بأن المعجزة لا تزال ممكنة. في كل مدن العالم، في روما كما في طوكيو...تظاهرت الشعوب بالحشود ملايين الغرباء يتوجهون نحو وسط مدنهم كي يقولوا لا للحرب. من استمع إلى أصواتهم الرافضة لاحتلال بغداد."[31].

السارد رافض للموت ونار الفتنة، يمكننا الظن أن هذه الذات تحاول أن تجعل من نفسها بؤرة الحدث، فرغم التقنع بأكبر من شخصية إلا أن صوتها لا يغيب،وكأننا بها في حالة تسريد لآلام ذاتها و وطنها. والملاحظ أن الوطن وشبح المقاومة يتبادلان الحضور في كل من العنوان و النص، وبذلك استطاع ياسمينة خضرا من خلال هذه التركيبة، تأثيث نصه بالمفارقة.فثنائيات الوهم//الحقيقة، الماضي//الحاضر،السكون//الحركة،الوفاء//الخيانة،الشجاعة//الجبن ،قد تجلت في العلاقة الجدلية المتمثلة في تفاعل النص مع العنوان.

بعد هذا نرى أنه من الضروري استخلاص العنوان على حدا و فك شفراته، بوصفه علامة لغوية تحمل دلالات معينة، فرواية "أشباح الجحيم" احتوت على مجموعة من العناوين الفرعية، اشتملت على ثلاثة عناوين، و كل واحد منها منفصل عن الآخر، لكنها في المضمون مرتبطة مع بعضها بعض.

العنوان الرئيس هو بمثابة سؤال إشكالي و النص إجابة عن هذا الإشكال، لأنه عنوان منمق و مفخخ في الوقت نفسه، و من خلاله نحاول الدخول داخل هذه العمارة و الغوص فيها بواسطة تحليل سيميائي له،ثم ننتقل إلى العناوين الفرعية بالوقوف على المعنى المعجمي للكلمات المكونة للعنوان الرئيس ثم محاولة معرفة الدلالة الكامنة خلف هاته العناوين.

جاء في المعجم "شَبَحٌ جمع أشباحٌ ":

ما بدا لك شخصه غير جلي من بعد "لاح لي شبحٌ".

شبح الشيء: ظِلّه و خياله.

أشباحُ بلا أرواح: يطلق على من كان هزيل الجسد ضعيف الفكر.

شبحُ الحرب: مقدمات الحرب و أوّلياتها.

شبح الموت: مقدمات الخراب و الدَّمار[32].

إن عنوان رواية "أشباح الجحيم" المترجم عن عنوان "Les sirènes de Bagdad" فلفظة "La sirène"[33]تعني:

La sirène : Etre fabuleux, à tête et torse de femme avec un corps d'oiseau ou une pueue de poisson, qui passait pour attirer, par la douceur de son chant, les navigateurs sur les écueils. Ecouter le chant des sirènes, se laisser séduire- femme douée d'un dangereux pouvoir de séduction.

Sirène : Puissant appareil sonore destiné à produire un signal.

Sirène d l'alarme, la sirène d'une usine, annonçant la reprise ou la cessation du travail.

و لفظة «Sirène» تعني باللغة العربية امرأة فاتنة، جنية البحر، و صفارة الإنذار[34]و معناها المجازي: "هو السراب الذي يغري الإنسان، ظاهره متعة و إنقاذ من الخطر و باطنه آلام و هلاك"[35]

إذا عدنا إلى جسد النص، وجدناه مشعاً بإشارات يضيء بها العنوان، و كأنها نوافذ أساس في الإطلال على طبقاته، و مع توالي القراءة تتضح دلالات العنوان، فالشخصية البطل كغيره من العراقيين مؤمن بقضيته الوطنية، حين يقول في أحد المقاطع السردية:

"شيء جميل لو يلتحق مفكرونا بنضالنا...أبدا لن يعترف الغرب بأفضالنا.بالنسبة إليه، العرب لا يحسنون إلا الضرب في الكرة أو الصراخ في مكبر صوت. و كلما أثبتنا له العكس إلا و ارتفع إنكاره لنا. و إذا حدث، مرة بالصدفة، أن أجبرت هذه المدارس الآرية أن تقوم بحركة باتجاه هؤلاء 'العرب القذرين المدجنين'،ستختار أسوأهم لإثارة غيرة أحسنهم."[36]"

و هكذا يستمر النص في إضاءة دلالات العنوان، فمع مواصلتنا للقراءة نجد بطل الرواية يعتقد أنه يدافع عن قضية يمكن أن نقول عنها من أسمى القضايا الإنسانية. و هي الدفاع عن الوطن، الدفاع عن التاريخ و الهوية، عند ذاكرة شعب طالما تبوء لنفسه مكانة بين الأمم التي يحاول الاستعمار طمسها، إننا نستحضر من خلال عنوان "أشباح الجحيم" الموقف الرافض الذي يستنبطه الكاتب اتجاه الأوضاع في العراق، فهو وصف لحالة الغربة و الضياع، و الأحلام المجهضة و الحرية الموءودة.

كما أنه يستبطن ثنائية الموت و الحياة، و طغيان الموت على عالم الإنسانية.فالمقاومة هاته الحاملة في رحمها توقاً للحرية، و دفاعاً عن وطن جريح و شعب مشرد و أحلام مغتالة، و بالتالي حنين لوطن مستقر آمن، في لحظة حاسمة تتحول فيها أرض بغداد إلى ظلمة الفكر و عمى البصيرة، و إلى استغلال الشباب بحجة الدفاع عن الوطن فانخدعوا ببريق هذه المقاومة المزيفة القائمة على التفجيرات و انشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، مستغلين إيمان الشباب بالجهاد و حب البلد الأم، مما أدت إلى حروب أهلية و انقسامات داخل الشعب الواحد.يقول السارد:

"في المكان نفسه، قبل ثلاثة أيام،قتل نائب شاب.كان على متن سيارته حينما التحقت به دراجة نارية.وابل من الرصاص، و الزجاج الأمامي تحول إلى شبكة عنكبوت.دارت السيارة على نفسها، صعدت فوق الرصيف، دهمت راجلة قبل أن ترتطم ضد عمود كهربائي. أسرع القاتل المقنع بكاغولة سوداء بفتح بوابة السيارة. أنزل النائب الشاب إلى الخارج، مدّ جسمه على الرصيف و خيطه بالرصاص."[37]

يوحي "أشباح الجحيم" بالعبثية لأنه لا يحمل في ذاته بعداً إنسانياً، بقدر ما يحمل في طياته الانغلاق و الموت، و الولوج في مسالك وعرة و منعرجات، جعلت من المجتمع العراقي معزولاً يدور في حلقة مفرغة. فالجحيم دلالة مقترنة بالخيبة و الهلاك، تنذر الإنسان بمصيره الفاجع و دخوله لمتاهة لا مفر منها. حيث إن هاته المقاومة التي أصبحت شعاراً واهن- من رؤية الكاتب- أدخلت المنطقة في حرب مسعورة.يظهر ذلك في النص الروائي الآتي حين يقول السارد:

" لم آت إلى بغداد للبحث عن ذكرياتي السعيدة بها،بل لمحوها إلى الأبد. بيني و بين بغداد،انقضى زمن البراءة المزهرة. لم يعد لنا شيء نقوله لبعضنا البعض. نتشابه مثل قطرتيماء؛ فقدنا روحينا و نستعد لقطف أرواح الغير."[38]

في ضوء هذا نجد عنوان "أشباح الجحيم" ينبأ بمحطات ألم قادمة، من خلاله تقف أمام موقف الروائي الرافض لكل أشكال الحرب و صنوف الدمار الذي يستهدف الإنسان البريء.بعد ذلك يأتي اختيار الكاتب للعناوين الداخلية، و التي جاءت كعتبات بعناوين مختلفة، تتكئ على التدفق الموزع بين فضاءات حقيقة، تجمع بين أماكن هي "كفر كرم- بغداد- بيروت" حوَّلها بذكاء إلى رموز ذات علاقات مختلفة تتلاقى في عالمه و تتقاطع و تتصارع فيما بينها.

-**كفر كرم**: هذه العتبة التي تستحضر طفولة السارد البطل فهي تمثل مسقط رأسه:

" إنني بدوي، ولدت بكفر كرم، و هي قرية نائية في وسط صحراء العراق، إنها كتومة إلى حد أنها غالبا ما تذوب في السراب."[39]

-**بغداد**: نموذج للمحنة و المعاناة و الانشغال بالذات، وولوج عالم المجهول و الهروب من سطوة الخوف.هذه العتبة أحد أهم الدلالات التاريخية والنفسية، التي تبعث بصورها مدى معاناة الإنسان، و ثورته على الظلم و البحث الدائم عن الاستقرار.

تستمر الرحلة في اكتشاف هاته المدينة (بغداد) التي ارتبط محيطها بذاكرة الأشياء، و جمال العالم البعيد و المفقود ،بغداد مدينة العلم و العلماء، بغداد مدينة الحضارة الإسلامية، و مهد للحضارات الإنسانية على مر الأزمان. دخلت صورتها عالم النسيان جراء الدمار الذي أصابها و أهلك كل شيء فيها يقول السارد:

"تتعفن بغداد لزمن طويل تشكلت داخل عجين الاستبداد ها هي اليوم تتخلى عن حبال معذبيها لتسلم نفسها لتيار الانجراف، منهرة بغضبها الانتحاري و دوخة اللاعقاب، انهار الطاغوت ، فوجدت صمتها المجبر سالما ، و جبنها ناقما، و ألمها عظيما، و راحت تعوذ من شر عفاريتها بقوة الولادة العسيرة.لم تتمكن يوماً من تليين قلوب جلاديها، فلم تركيف تشفق على نفسها الآن في وقت رفعت فيه كل المحظورات. تحاول إرواء عطشها في ينابيع جراحها، في المكان الذي تركت فيه بردعة الخزي أثرها:ضغينتها. أثملتها أوجاعها و التقزز الذي تثيره..."[40]

-**بيروت:** تبدو هذه العتبة -منذ الوهلة الأولى- طبيعية و لكنها تحمل دلالات لا تبتعد كثيراً عما أفضته العتبات السابقة من حيث اختيار التجارب الصادمة و المفاجئة، يقول السارد:

" تخيلتها مختلفة، عربية ومعتزة بعروبتها.فكنت مخطئا. فهي ليست إلا مدينة يتعذر تحديد معالمها؛ إنها أقرب إلى استيهاماتها منها إلى تاريخها؛ مخاتلة و متقلبة، مخيبة للأمل كمزحة باردة. فإذا كان أولياؤها القديسون قد تنكروا لها، و سلموها هكذا إلى صدمة الحروب و هشاشة المستقبل، فلربما حصل ذلك بسبب عنادها و إرادتها في التشبه بمدن العداء.عاشت الكابوس، في حجمه الطبيعي فيما نفعها"[41].

يبدو أن هذه المدينة العامرة لها أسرارها و مقامها و نظامها، ليس من السهل أن ندركها ما لم تغوص في أبنيتها و تتعرف على عالمها الداخلي، و تقف على حقيقتها كما صنعتها التجارب. يستكشف السارد البطل في هاته المدينة "بيروت" كثيراً من الأمور، فلماذا اختار السارد هذا المكان لتحقيق هدف البطل؟ تساؤل و تعجب في آن واحد، لعلها بذلك بؤرة تأزم؛ فلبنان بلد يحمل في رحمه طوائف عدة و اتجاهات مختلفة مثلما تحمل العراق. فهذه البلد هي الأخرى قابلة للانفجار في أية لحظة. إنها تمثل نقطة استقطاب في عين الغرب.

"أشباح الجحيم" رواية تنمو ضمن وتيرة معقدة تنتهي إلى مرحلة مأساوية، تعكس الوضع العراقي المزري، و الذي تفجر منذ دخول الاحتلال، كما أن سيرة المكان تتداخل مع الإنسان مشبعة بالآهات و المحن و الآلام النفسية و الأحلام المجهضة.إنها رواية يمكن أن تنتظم كسيرة ذاتية، وعنوانها ينطبق تماماً مع مضمون الرواية، فـ "لا تكاد تسمعه و تنطق به حتى تتبين أنك مقبل على كتاب يصور جواً شعبياً قاهرياً خالصاً، فهذا العنوان يوشك أن يحدد موضوع القصة و بيئتها"[(42)].

فقد وضع القارئ منذ الوهلة الأولى في قلب الحدث، و جذب انتباه و رغّبه في فعل القراءة، و أيقظ فيه روح الفضول و خوض تلك التجربة الجميلة عبر صفحات الرواية، لأنه لم يوضع من قبل المؤلف عبثاً و لا اعتباطاً، بل يتقصّد من ورائه مزيداً من الإضاءات يحاول من خلالها فك شفرات النص.

الهوامش:

[1] ينظر،فرج عبد الحسيب محمد مالكي، عتبة العنوان في الرواية الفلسطينية، "دراسة في النص الموازي"(رسالة ماجستير)،جامعة النجاح الوطنية ، نابلس، فلسطين،سنة 2003م، ص 68.

[2] عبد الحق بلعابد ،عتبات (جيرار جنيت من النص إلى المناص)،تقديم سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون،الجزائر،الطبعة الأولى، سنة 2008، ص73.

[3] ينظر،المرجع نفسه،ص74.

[4] شعيب حليفي، النص الموازي للرواية، إستراتيجية العنوان، مجلة الكرمل، قبرص، العدد 46، سنة 1992م، ص82.

[5] ينظر،عبد الفتاح الحجمري، عتبات النص البنية والدلالة، شركة الرابطة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، سنة 1996م، ص07.

[6] شعيب حليفي، النص الموازي للرواية، إستراتيجية العنوان، ص82.

[7] عبد العالي بوطيب، برج السعود وإشكالية العلاقة بين الروائي التاريخي، المناهل، المغرب، العدد 55/السنة 22، يونيو، سنة 1997م، ص64.

[8] ينظر،عبد الفتاح الحجمري، عتبات النص البنية والدلالة، ص07.

[9] جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، الكويت، المجلد 25، العدد3، يناير/ مارس 1997م، ص105.

[10] علي جعفر العلاَّق، الشعر و التلقي 'دراسات نقدية' ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، سنة 1997م ، ص173.

[11] الطيب بودربالة، قراءة في كتاب سيمياء العنوان للدكتور بسام قطوس، محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر، العدد 15و16، أفريل 2002، ص52.

[12] عبد القادر رحيم، العنوان في النص الإبداعي "أهميته وأنواعه"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد الثاني والثالث، جانفي/جوان، 2008م، ص02.

[13] الطيب بودربالة، قراءة في كتاب سيمياء العنوان للدكتور بسام قطوس، ص28.

[14] عبد الحق بلعابد، عتبات "جيرار جنيت من النص على المناص"، تقديم د. سعيد يقطين، الدراسة العربية ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 1429هـ/2008م، ص67.

[15] جميل حمداوي، صورة العنوان في الرواية العربية، التجديد العربي، مجلة رقمية إلكترونية،**2007/01/22http://www.arabicnadwah.com/articles/unwan-hamadaoui.htm**م .

[16] سلمان كاصد، عالم النص(دراسة بنيوية في الأدب القصصي فؤاد التكرلي نموذجاً)، دار الكندي، الأردن،(دون طبعة)،سنة 2003م، ص 15.

[17] فرج عبد الحسيب محمد مالكي، عتبة العنوان في الرواية الفلسطينية، "دراسة في النص الموازي". (رسالة ماجستير). جامعة النجاح الوطنية،نابلس، فلسطين، 2003م، ص 32.

[18] بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ، سنة 2001م، ص33.

[19] جميل حمداوي، السيموطيقا والعنونة، ص90.

[20] محمود عبد الوهاب،ثريا النص 'مدخل لدراسة العنوان القصصي'.الموسوعة الصغيرة"396"، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،سنة 1995م، ص09.

[21] شعيب حليفي،هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل ،دار الثقافة،الدارالبيضاء،الطبعة الأولى،سنة2005م، ص33.

[22] شادية شقروش ،سيميائية العنوان في "مقام البوح" لـ عبد الله العيش،محاضرات الملتقى الوطني الأول السيمياء و النص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،العدد6 و7،نوفمبر2000م،ص 271.

[23] دليلة مرسي و آخرون، مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، دار الحداثة، بيروت، سنة1985 م،ص 44.

[24] عبد الله الغذامي، الخطيئة والتفكير، منشورات النادي الثقافي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، سنة 1985م، ص263.

[25] إبراهيم بادي، دلالة العنوان وأبعاده في موتة الرجل الأخير، مجلة المدى، سوريا، العدد 26، سنة 1999م، ، ص114.

[26] الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، المجلد الأول، سنة 1997م، ص98.

[27] ياسمينة خضرا، أشباح الجحيم، ترجمة محمد ساري، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2007، ص07.

[28] المصدر نفسه ، ص 30.

[29] جميل حمداوي،السيميوطيقا و العنونة، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد 25، العدد03،يناير /مارس 1997، ص106.

[30] ينظر،جميل حمداوي، صورة العنوان في الرواية العربية،" التجديد العربي"،مجلة رقمية إلكترونية،2007/07/22م.2007/01/22http://www.arabicnadwah.com/articles/unwan-hamadaoui.htm

[31] ياسمينة خضرا ، أشباح الجحيم ، ص 188.

[32] - جماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، توزيع لاروس، ص 666.

[33]-Josette Rey- De Bové, le robert Méthodique, 1989, Paris, P1322.

[34] - جيرار موسى، جيمو "القاموس المزدوج"، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص251.

[35] - محمد ساري، "صفارات بغداد" لياسمينة خضرا سفر في عمق المأساة العراقية" مجلة الأثر، مديرية الثقافة، ولاية بشار، العدد الخامس، ص94.

[36] ياسمينة خضرا،رواية أشباح الجحيم، ص 19.

[37] المصدر نفسه ، ص187.

[38] المصدر نفسه، ص172.

[39] المصدر نفسه ، ص08.

[40] المصدر نفسه ،ص188.

[41] المصدر نفسه،ص 07.

[42] - طه حسين، نقد و إصلاح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 9، سنة 1982م، ص115.